

الخزانة المغربية بين تحديات الإهمال وآمال الإنقاذ

د/ احيا الطالبي

أستاذ بجامعة ابن زهر بأكادير- المغرب

إن مسألة إنقاذ المخطوط أمر لا مناص منه باعتباره يجسد ذاكرة أي أمة من الأمم ويكشف عن الموروث الحضاري لنهضة الأفراد والمجتمعات، ويعكس التألق الذي عرفته الحضارة الإسلامية منذ سالف العصر والأوان، وتفوقها في كافة مجالات العلم وفروع المعرفة مما يستدعي النظر في عوامل التردّي والانحطاط الحضاريين بفعل ضياع غالب تراثنا و التفرّيط في الخزائن والمكتبات ومصادرتها وإحراقها، وإهمالها وقلة العناية بها مما يحتم علينا التفكير جديا في إنقاذ ما تبقى من الكتب النادرة والمخطوطات....

وقد أجمع الباحثون على أن الحضارة الإسلامية في جوهرها ومضمونها حضارة كتابة وتأليف، وتحقيق وتصنيف، ويشهد الجميع بالدور البارز الذي لعبه المخطوط العربي في نقل حضارة وثقافة الإنسان العربي في مختلف البلاد العربية والإسلامية، وكان المغرب

من أبرز هذه الدول التي تجمع لديه رصيد مهم من التراث المخطوط، وذلك لأن المغاربة كانوا مولعين بالبحث والتنقيب عن الكتب يرحلون من أجل الحصول عليها، ويرسلون البعثات قصد اقتنائها واستنساخها والاستفادة منها، وكان نتيجة هذا الإقبال اللامحدود على الكتاب، وهذا الحرص على العثور على النسخ الأصلية أو الصحيحة المضمون أو المصحوبة بالإجازات والسماعات وغيرها، هي أن المغرب يحتفظ اليوم برصيد من المخطوطات يمتاز بنوادره ونفائسه يكاد يميزه نسبيا عن الأرصدة المحفوظة في مختلف خزانات الكتب في العالم¹.

كما تهدف الورقة إلى عرض تصور عملي على أنظار الباحثين والمهتمين ينطلق من واقع هذه المكتبات -خصوصا الخاصة منها- ويكشف عن وضعية المخطوط بخزائن بعض مناطق المغرب، وهي وضعية بئيسة وكئيبة يجسدها ما تتعرض له هذه الخزائن من الإهمال والإغفال وما يعترها من الانقسام.

وأعتقد أن تحديد هذه الرؤية ينبغي أن ينطلق من معطيات قد تزيدنا اقتناعا واستعدادا بضرورة عدم الاقتصار على ترديد عبارات الرثاء أو تسويد الأوراق بالإنشاء، لكنه مع ذلك لا بد من بعث الأمل في النفوس بأن إنقاذ الخزانات المغربية سهل المنال لكنه رهين بوضع استراتيجية حقيقية تستهدف جمع المخطوطات

وصيانتها وتصويرها ووضعها رهن إشارة الباحثين والمهتمين
لتحقيقها أو دراستها.

وانطلاقا من هذه الأهداف فإنني أتناول العرض وفق

التصور المنهجي الآتي:

المبحث الأول: واقع المكتبة الخاصة والعامة بالمغرب.

المبحث الثاني: رهانات إنقاذ المخطوطات بالمكتبات المغربية.

المبحث الأول واقع المكتبة الخاصة والعامة بالمغرب

إن واقع الخزنة المغربية الراهن واقع لا يشذ عما تعيشه

المكتبات في أرجاء المعمور وهذا ما نبه إليه د. أحمد شوقي بنين

حينما قال:

"عرفت خزانات كتبنا شأن كل خزانات العالم العديد من

النكبات التي تعزى إلى الحشرات القوارض، وإلى الفتن السياسية،

وإلى السرقة والنهب، واستطاعت العديد من العوامل المخربة أن

تلحق أضرارا بالمكتبات المغربية".²

ويكفي أن أشير إلى بعض تلك الأسباب وتأثيرها السلبي منها:

الإهمال، وانقسام الخزانات بين الأبناء والأحفاد، والإعارة والنهب.

وإذا كانت هذه العوامل قديمة بقدم هذه المكتبات أو

الخزانات فإنني سأكتفي برصد الوضعية الحالية التي يعيشها

المخطوط في المكتبة المغربية وما يكابده من تحديات يمكن إجمالها بوجه عام فيما يأتي:

1 - الإعارة:

إن "آفة الكتب الإعارة" كما يقال، وتعتبر هذه الظاهرة من أخطر الأسباب السابقة، لأن أغلب أهل العلم والطلبة يستعيرون الكتب إما من المكتبات العامة أو الخاصة ولا يردونها لأصحابها حتى أصبحت هذه الظاهرة طبيعية مما انعكس سلباً على محتويات هذه المكتبات وتعرضها للتلف والضياع... وقد قال بعضهم في هذا المعنى:

إذا استعرت كتابي وانتفعت به واحذرو قيت الرد من أن تغيره

واردده سالماً إنني شغفت به لولا مخافة كتم العلم لن تره

وقد تؤدي هذه الإعارة إلى الإبقاء على الكتاب والاستيلاء عليه أو السيطرة عليه بدعوى أن صاحب المكتبة أو وارث سرها لا يهتم بالكتب ولا صلة له بالميدان، وهذا خطأ كبير وعيب خطير لأن احترام الودائع وإرجاعها مأمور به شرعاً وقانوناً...

وقد تحدث العلامة الكتيبي محمد بن ابراهيم الكتاني عن

خطورة الإعارة على مكتبة الزاوية الناصرية بتامكروت وذكر أن أهل الزاوية يذكرون أسماء كثير من الأشخاص الذين يظنون أن عندهم بعض كتب الزاوية ممن كانوا يتولون أمر الخزانة أو ممن

استعاروها في المناسبات المختلفة ولكنهم لم يردوها وقد استطاع الفقيه الكتاني المذكور أن يسترجع بالفعل بعض المخطوطات عند بعض المستعيرين لكن ذلك تافه بالنظر الى ما يتحدث به الناس حول محتويات هذه الخزانة³.

ومما يؤسف له أن بعض المكتبات العامة والخاصة بالجنوب المغربي كانت ضحية نهب الكتب حتى من القائمين عليها، وقد زرت إحدى المكتبات المحبسة على مدرسة علمية بضواحي تارودانت⁴ بالجنوب المغربي فوقفت فيها على مخطوطات محبسة يعود تاريخ تحبيسها الى القرن التاسع الهجري، فوجدت بها بعض اجزاء الكتب وبقيّة الاجزاء الاخرى استحوذ عليها الفقهاء المدرسون ممن درسوا بهذه المدرسة⁵، والدليل على ذلك أن بعض نفائسها عبارة عن أجزاء كشرح الرسالة لابن ابي زيد القيرواني لعبد الرحمان بن عفان الجزولي وهو من أهل القرن السابع الهجري وهو نادر أوله كتاب الجهاد، لكن القسم الاول من المخطوط مفقود.

2- الإهمال:

لا يمكن أن نستبعد في هذه العجالة مكانة الكتاب في التنمية المعرفية لدى الشعوب والمجتمعات، فالحفاظ عليه من أوجب الواجبات التي ينبغي الحرص عليها للظفر بالمقعد الأمامي والوصول إلى الدرجة العالية في مجالات التنمية الاقتصادية

والإجتماعية، لأن الوعي الحضاري لا يتأتى إلا بالتعلم والتعليم والقراءة والكتابة.

إن الاعتقاد السائد لدى كثير من الناس - بمن فيه المثقفون- أن لا مكانة للمخطوط في تنمية القدرات المعرفية وتحصيل التنمية الفكرية، وأن الاشتغال به في زمن التقدم التكنولوجي والمعلوماتي أضحى عبثا ومعيقا للتطلعات المنشودة على الصعيد المعرفي، ولذلك نرى الدوائر الرسمية والمراكز الجامعية لا تعير أي اهتمام للكتاب والمخطوطات وفهرست الخزانات العامة والخاصة، وما ضياع كثير من هذه المخطوطات إلا دليل على الإهمال واللامبالاة، ومن مظاهر الإهمال التي تلحق المخطوطات وتعرض لها الكتب عموما:

- وضعها في مكان بعيد عن التهوية مما يعرضها للتلاشي والزوال والاضمحلال بفعل الأرضة.

- قلة الصيانة وعدم استعمال المبيدات، ونذكر من المكتبات السوسية بجنوب المغرب التي كانت ضحية الإهمال خزانة جمعية علماء سوس بمقر الجمعية بتارودانت وهي في أصلها خزانة العلامة محمد المختار السوسي، وتفيد بعض الروايات الشفوية أن تصفح هذه الكتب أصبح متعذرا وبالأحرى قراءتها، وهذا ما وقع لخزانة كتب سيدي علي بن ياسين التمنارتي فيها

كتب كثيرة موضوعة في وسط القمطر من أزمان حتى لعبت بها الأرضة⁶.

سوء التنظيم وانعدام الترتيب: ومما يبعث على القلق أن بعض المكتبات لم تخضع للترتيب وتشكو من سوء التنظيم وقد تأسف ليفي بروفينسال في الفصل الذي كتبه ب"دائرة المعارف الإسلامية" عن كتب زاوية تامكروت بجنوب المغرب لعدم تنظيم هذه الخزنة حتى يتيسر للباحثين الاستفادة من كنوزها⁷.

لقد أدى الإهمال وإخفاء الكتب للاستئثار بها إلى ضياع جزء كبير منها من التراث الوطني المكتوب في المغرب، فبالإضافة إلى الشروط الرديئة للمحافظة على المخطوطات، هناك الإهمال والحسد اللذان يؤديان بالعلماء إلى أن يتلفوا المخطوطات أو يغلقوا عليها إلى الأبد، فكثيرة هي المخطوطات التي ضاعت بسبب الإهمال⁸، وقد ذكر العلامة المختار السوسي في كتابه "خلال جزولة" بعض النماذج من المكتبات التي تعرضت للتلف والضياع بسبب الإهمال واللامبالاة⁹.

ومن مظاهر الإهمال ما حكاه الشيخ عبد الحي الكتاني عن مكتبة الجامع الأعظم بفاس في عهد السلطان أبي الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله "وقد استولت الأرضة على أكثر كتبها وأفسدت جوهرها حتى تمزقت أشلاؤها وتغيرت أسماؤها وما حرم منها باسم العارية"¹⁰.

3- الإحراق ونهب المخطوطات:

إن قضية إحراق الكتب وإشعال النار فيها قد تكون عن قصد أو عن غير قصد، وفي جميع الأحوال فإنها تنم عن انعدام الوعي بأهمية الكتب والمخطوطات والحفاظ على الموروث الحضاري للأمة وهويتها وكيانها.

ونستشهد هنا بما أورده المراكشي في (المعجب) بأن أبا يوسف الموحي أمر بإحراق كتب المذهب المالكي بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب "التهذيب للبرادعي" و"واضحة" ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها.¹¹

وأضاف قائلا: "لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار".¹²

ومن المكتبات المهمة التي تعرضت للنهب مكتبة العلامة سيدي الحاج الحسين الإفرائي نزيل تيزنيت بالجنوب المغربي، فقد نهبوا خزانة كتبه التي تضرب بها الأمثال بالسوس الأقصى، الجامعة من المخطوطات والمؤلفات القديمة السوسية وغيرها ما لم تجمعها (2) مكتبة مغربية،¹³.

ولسرقة الكتب ونهبها انعكاسات سلبية ومضاعفات خطيرة
تأثرت بها ماتحتويه الخزانات والزوايا من الدفائن وكنوز
المخطوطات ، فحينما استولى المولى الرشيد على الزاوية الدلائية
اصطفى بعض كتبها لنفسه وأوقف بعضها على جامع مكناس وفيها
عشرة آلاف سفر¹⁴ .

المبحث الثاني: حماية المخطوطات بالمكتبات المغربية

تحاول الجامعات والمؤسسات الثقافية في المغرب حماية
المخطوطات والاستفادة من التكنولوجيا الحديثة في مجال معالجة
وترميم وتصوير المخطوط مما يساعد على حماية هذا التراث
والاستفادة منه بشكل أفضل، كما تقوم وزارة الثقافة من حين إلى
آخر بعمليات شاملة لمعالجة وترميم المخطوطات النادرة لاسيما
تلك التي ما زالت أسير المكتبات العائلية التي أسهمت بشكل كبير في
الحفاظ على النفايس والذخائر في كافة المجالات العلمية وفروع
المعرفة.

ورغم الضياع الذي لحق بالمخطوطات جراء النهب
والحرائق والإهمال فإن عمليات الترميم أنقذت الكثير من النفايس
العلمية والمعرفية والمخطوطات التراثية، مما يؤكد أهمية مواصلة
الجهود للحفاظ على المخطوطات وصيانتها، لاسيما المخطوطات
الخاصة التي تمتلكها العائلات حيث يقوم الباحثون بجهود حثيثة
لتحسيس مالكي المخطوطات بأهميتها وتدريبهم على حمايتها وفقا

للمعايير الحديثة، وتدريب العاملين في المكتبات لزيادة كفاءتهم، وتنمية قدراتهم ومهاراتهم في مجال حفظ المخطوطات.

ويطمح الباحثون من خلال جهودهم وأبحاثهم الحفاظ على المخطوطات الأصلية، وتوفير صور ونسخ منها لتكون بين أيدي الباحثين، واستخدام تكنولوجيا المعلومات في حفظ المخطوطات ورقمنتها، إضافة إلى ذلك تدريس علم تحقيق المخطوطات في المناهج لتمكين الطلبة من التعامل مع النصوص التراثية على أسس علمية. وقد قامت وزارة الثقافة بدعم جهود الباحثين لمعالجة المخطوطات وتنظيفها من الحشرات والفطريات والغبار وتصويرها على شرائط ميكروفيلم من أجل الحفاظ عليها من الأضرار التي تنجم عن الاستعمال المباشر لها وكذلك تسهيل اطلاع الباحثين عليها بواسطة مقرئات الميكروفيلم، إضافة إلى توفير قاعات خاصة لحفظها تستجيب للمعايير الدولية في مجال حفظ المخطوطات ، ومن جملة الخطوات التي يراهن عليها في تحقيق عملية الإنقاذ نذكر ما يلي:

11 الاقتناء والاستنساخ

وقد تم إغناء بعض المكتبات المغربية بوسائل شتى من جملتها الاقتناء والاستنساخ والوقف ومن الهبات وعطايا السلاطين، فقد اقتنى محمد بن ناصر الدرعي لفائدة تامكروت العديد من نسخ الكتب، وقدم ثمانمائة مثقال مقابل نسخة الحلية

لأبي نعيم، واشترى الشيخ محمد بن عبد السلام الناصري ت 1240 هج في رحلته إلى استانبول مؤلفات كبيرة منها كتاب "الكمال" للحافظ عبد الغني المقديسي في مجلدين بثمان بخس، وذلك برسم خزانة الزاوية، وتم ابتياع الكتب حسب صاحب المزاي من مكة والمدينة ومصر وطرابلس وتونس¹⁵.

وقد تجمع للأستاذ العلامة عبد الله كنون¹⁶ طيلة حياته العلمية من المخطوطات والمطبوعات الحجرية، وأضاف إليها عددا من المصورات التي استخرجها من دور الكتب بمصر وإسبانيا هذا بالإضافة إلى آلاف الكتب المطبوعة ومنها النادر الآن تملكها بالشراء وعمل على صيانتها فأصبحت بذلك خزانة ملحوظة بعين الاعتبار في المغرب¹⁷.

وتزداد أهمية الاقتناء والاستنساخ في العصر الراهن إذ تم التعرف على كثير من المخطوطات ومظانها بواسطة الفهارس العلمية للكتب التي سهر على إعدادها جملة من رواد المكتبات والقائمين عليها والباحثين والمهتمين مما عبد الطريق أمام المخطوطات ويسر طرق الوصول إليها.

وتشكل مراسلة أرباب الزوايا والقائمين على المخطوطات للعلماء والمؤلفين وسيلة من وسائل دعم المكتبات وتعزيز الخزانات، ولم يدخر هؤلاء الشرفاء وسعا في اقتناء الكتب واستنساخها ومراسلة العلماء الأعلام، وخلق كراسي علمية في المساجد والجوامع¹⁸.

فقد جاء في كتاب المسالك للبكري أن الخليفة "أحمد بن قاسم الإدريسي" دعا الشاعر والعالم الكبير "بكر ابن حماد التاهرتي" للاستقرار بمدينة فاس وتدريس العلوم "بجامع القرويين" الحديث العهد، وما أخال هذه الحركة الثقافية إلا أنها تمخضت عن رصيد من المخطوطات دخل المغرب رفقة هؤلاء العلماء الأفاضل واستقر بمكتبات عامة وخاصة لم يفصح عنها ما بقي بين أيدينا من مصادر ووثائق¹⁹.

وتجدر الإشارة إلى أن اقتناء الكتب وتعزيز الخزانات المغربية بالمخطوطات كانت بدعم السلاطين أيضا "وكانت" للمنصور" في عصر الموحدين عناية تامة باقتناء الكتب والتنافس في جمعها من كل جهة، فجمع من غرائب الدفاتر ما لم يكن لمن قبله ولا يتهيأ لمن بعده مثله وجل كتبه طالعه وتفهمه ووقف عليه بخطه ونبه على الغامض وشرح الغريب²⁰.

وكان المنصور الذهبي واسطة عقد الدولة السعودية يرسل المؤلفين ومن لهم اتصال بالمؤلفين خارج مملكته، ويبعث لهم العطايا الجزيلة، ليهدوا إلى خزائنه العلمية آخر ما ألف. فعل هذا مع الإمام أبي بكر إسماعيل بن أحمد الشنواني الوفائي لما سمع بشرحه لأوضح بن هشام على الألفية²¹.

2 الوقف المكتبي:

وبقدر اعتناء المغاربة باقتناء الكتب، كان اعتناؤهم بتسبيلها على العموم، ووقفها على معاهد العلم بالمغرب وغير المغرب للقراءة والاستفادة²².

لقد درج المسلمون منذ قرون عديدة إلى عصرنا الراهن على تحبيس الكتب والمؤلفات المصنفات في مختلف العلوم والفنون، ونتيجة لذلك تكونت مكتبات وخزانات بالجوامع والمساجد والزوايا والأضرحة، وهكذا أسهم الوقف بشكل كبير في إثراء هذه المكتبات وإغنائها بالمخطوطات في مختلف أرجاء العالم الإسلامي²³. ولم يعرف المغرب وقف الكتب إلا في نهاية العصر المرابطي وعرف تطورا في العهد الموحيدي²⁴ حين أوقف أبو الحسن البشاري (ت649هـ) بسببة خزانة مدرسته الشهيرة، وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم كما يقول بذلك محمد بن القاسم السبتي في كتابه "اختصار الأخبار".

غير أن الفقيه المنوني في كتابه "دور الكتب في ماضي المغرب" يرجح أن يكون تأسيس المكاتب العامة قبل هذا العهد في العصر المرابطي أو أوائل العصر الموحيدي على الأقل وأنه أسست إذ ذلك مكاتب عامة أهملها التاريخ المغربي فيما أهمل فقاتل الله الإهمال،²⁵ ثم استمر الوقف المكتبي في عهد أبي الحسن وأبي علي المريني وكان المنصور الذهبي من الدولة السعدية وجماعة من أبنائه من بعده الأكثرين في هذا الميدان.²⁶

وتحتفظ حوالات أحباس تارودانت بلائحة الكتب التي أوقفها الأمير أبو مروان على خزنة سيدي وسيدي وفيها مصاحف شريفة، وجملة من كتب التفسير والحديث والفقه والتوحيد والأذكار.

كما استفادت الخزنة من وقف القائد الشهير عبد الله بن عبد الملك الحاحي سنة 1266هـ/1850م، وهو التاريخ الذي قدم للخزنة المذكورة كتابا.

وقد كان السلطان الحسن الأول - وهو لا يزال وليا للعهد - بعث للخزنة بأعداد من المنشورات مثل نسخ من الشمائل الترمذية ونسخ من الشرح الصغير لميارة على المرشد المعين. وبعد استقلال المغرب أضيفت إليها مخطوطات أخرى مجلوبة من خزنة القائد عياد الجراري ثم أضيفت إلى معهد التعليم الأصيل تحمل اسم "الخزنة العامة للإمام علي" وهي تابعة لوزارة الأوقاف.²⁷

وبعد هذه اللوحة من الوقف المكتبي التي أبانت عن أهميته في تعزيز محتويات المكتبات العامة في تاريخ الخزنة المغربية فإن المأمول أن يعاد للجبس المكتبي دوره سيرا على هدي السلف واقتداء بمنهجهم في تحبيس الكتب على الخزانات العامة بالمغرب أو على مراكز علمية خاصة وأرى أن تحقيق ذلك يتوقف على حملات تحسيسية تقوم بها الهيئات العلمية والجامعات عبر اللقاءات والندوات والمؤتمرات ...

وهنا نشير إلى إمكانية تنوع أصناف الواقفين فلا ينبغي الاقتصار على مخاطبة العلماء والفقهاء ممن ورثوا الخزانات العلمية والمخطوطات الخاصة عن آبائهم وأجدادهم فحسب، بل يمكن أن يمتد هذا الخطاب التحسيسى بأهمية الوقف المكتبي ليشمل عامة الناس، فقد ورد في كتاب "تاريخ خزائن الكتب بالمغرب" للدكتور أحمد شوقي بنين "أن الوقفيات الموجودة في الأوراق الأولى من المخطوطات المحبسة والمحفوطة في مختلف المكتبات المغربية تتضمن مختلف ضروب الوقف وهي: الوقف الملكي، والوقف الخاص، والوقف الاسترعائي، والوقف المعقب، وأخيرا الوقف على أرواح الموتى"²⁸

3 الاستغلال الرقمي والحفظ الإلكتروني للمكتب

والمخطوطات:

لا يخفى على الباحث الأهمية التي تكتسبها التكنولوجيا الحالية في خدمة المخطوطات والكتب النادرة بدءا بتصويرها إلى تخزين المعلومات المتعلقة بها واحتواء الحواسيب على مكتبات هامة، من أثر إيجابي في نقل المعلومات المتعلقة بالمكتبات والخزائن في العالم العربي والإسلامي .

ويندرج ضمن إستراتيجية حماية الخزائن وحماية محتوياتها واستغلال شبكة الإنترنت في تعزيز المكتبات ودعمها بالإصدارات الإلكترونية الموافقة للمطبوعات والكتب المحققة، وربط المكتبات والخزائن التي تحتوي على المخطوطات بالمعاهد والجامعات.

ومن شأن هذا كله أن يسهل مأمورية تبادل المعلومات المتعلقة بالخزانات الخاصة والعامة وعرض محتوياتها وتعزيزها بعنوانين الكتب وقائمة الجرود والتعريف بالكتب والمخطوطات. ومن المفارقات أن نسجل في هذا المقام أن الاهتمام بالمخطوطات وحفظها وصيانتها كان في الوقت الذي انعدمت فيه الوسائل التكنولوجية الهائلة، والعناية بالرقمنة المتطورة، ووسائل الاتصال الحديثة، مما يبعث على الاستغراب ويدعو إلى العجب، ولذلك ينبغي أن نتساءل مع الباحثين المهتمين في الجامعات والدارسين الغيورين على التراث من أبناء جلدتنا، أين تلکم الهمم والقمم التي تحدث مظاهر الإهمال والفاقة والحاجة واستطاعت أن تحمي هذا الزخم من المخطاطات والكتب النادرة من الارضة والحشرات ومظاهر الإهمال أليست هناك تحديات خطيرة تحدد بالتراث العربي عموما قبل ظهور التكنولوجيا الحديثة؟

إن صمود المخطوطات العربية في المكتبات والخزانات العامة والخاصة ولم يعيبث بها الزمان حصل بفضل جهود العلماء والمهتمين ممن لا يملكون هذه الامكانيات والوسائل المذكورة لكنهم تسلحوا بالإرادة القوية والطموح العريض فكانت لهم جهود انقذت المخطوطات من المحن والإهمال، والاندثار والاضمحلال.

4 تهجير المخطوطات:

لا ينبغي أن تكون الأطماع وراء بيع الكتب والمخطوطات إلى الأجانب الذي يعبثون بالتراث ولا يعرفون قيمة المخطوطات.

وقد استفحلت ظاهرة تهجير الكتب والمخطوطات بالمغرب في فترة الحماية وبعد الاستقلال إما بالإغراءات المادية التي يقدمها مشترو هذه الكتب وسماستهم من منعدمي الضمير للمتاجرة في الكتب وبيعها أحيانا بأرخص الثمن، وإما بالجهل بقيمة المخطوطات ومالها من رمزية في الحفاظ على كيان الأمة وهويتها. ومن هذا المنطلق فإن أرباب المكتبات الخاصة مدعوون أكثر من أي وقت مضى إلى ضرورة حماية المخطوطات والمطبوعات النادرة والوثائق والظواهر والمذكرات والحفاظ عليها وعدم بيعها للأجانب مهما كانت قيمتها وثمان بيعها، ولا شك أن الإحساس بخطورة هذا الأمر كفيل بالحفاظ على ما تبقى من هذه المخطوطات والخزائن.

وتذكر المصادر أن الكتب العربية الموجودة في الإسكوريال باسبانيا، ليست من اثار عرب الأندلس، وإنما أسلاب السفن التي كان يأسرهما قرصان الإسبان من المغاربة، ومع ذلك فلم تنج تلك الكتب المغتصبة من اللهب²⁹

ولنا أن نتساءل عن المتاحف الأوروبية والمكتبات العامة بأوروبا وغيرها الزاخرة بالمخطوطات العربية فكيف وصلت إليها هذه المخطوطات؟

5 تقديم خدمات للطلبة الباحثين لنفض الغبار عن هذه

الكتب وذلك بتحقيقها ودراستها وطبعها:

إن وجود الجامعات وكلية الآداب منها بالتحديد كان له أثر

إيجابي في نفض الغبار عن كثير من المخطوطات وذلك بإعداد بحوث جامعية إما في إطار إعداد البحوث لنيل الإجازة أو في أقسام الدراسات العليا لنيل دبلوم المستر أو إنجاز أبحاث لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا والدكتوراه مما أسفر عن جهود علمية في ميدان المخطوطات ودراستها أو تحقيقها.

ونذكر هنا بأن كثيرا من المعاهد والجامعات-خصوصا كلية

الاداب-لم توجه اهتماماتها الى مجال تحقيق المخطوطات مما يستدعي تضافر الجهود بين السادة الاساتذة والطلبة الباحثين لانقاذ المخطوطات بالجمع والتوثيق والتحقيق والطبع والنشر وتعميم الفائدة.

ومن وسائل إنقاذ المكتبات وتعزيز الخزانات بالكتب

والمخطوطات مراسلة المؤلفين والباحثين الجامعيين الذين تصدوا لتحقيق المخطوطات والمهتمين بجمعها ، وأحسب أن بعض المدراء يقومون بهذه المبادرة ويراسلون مدراء المجلات ومؤلفي الكتب لتزويد المكتبات بالكتب ونوادير المخطوطات.

ويجدر بنا أن نذكر أنه ابتداء من القرن الثامن الهجري،

واعتبارا للعوامل السالفة الذكر، فإن الخزنة المغربية قد بلغت أوج تطورها وازدهارها في تاريخ المغرب الثقافي، فإلى جانب "الخزنة

الملكية" بالرباط التي نتتبع من خلال تاريخها مسيرة المخطوط في المغرب، قد ظهرت - ولأول مرة - خزانات أخرى لعبت دورا كبيرا في تطور الثقافة، وفي الحصول على الكثير من المخطوطات التي لا تزال تفتخر بها مكتباتنا المعاصرة، إنها خزانات المساجد الجامعة كالقرويين بفاس، وابن يوسف بمراكش، وخزانات المدارس العتيقة، وخزانات الزوايا التي انتشرت في مختلف جهات المغرب ولا يزال بعضها إلى اليوم يضم مجموعات نادرة كتلكم التي تحتفظ بها زاوية تامكروت بجبال الأطلس والزوايا الحمزاوية بجبال الأطلس³⁰. وإن الابحاث قد حملتنا على الوقوف على أن المكتبات المغربية عرفت انطلاقا منذ التاريخ المذكور ازدهارا لا مثيل له. وكان تنامي الحياة الثقافية، وظهور كبار العلماء، وإحداث مراكز جديدة للتدريس مثل المدارس، والزوايا، والعلاقة التي تمت بين الملوك الولوعين بالكتب والعلماء من الأمور التي أسهمت في هذا الازدهار.

فقد كانت المكتبات الملكية، والخاصة والعامة، قد جمعت آلاف المخطوطات القيمة وما زال عدد منها محفوظا فيها ولا نعثر عليه في مكان آخر.

فالمغاربة، وبوجه خاص الملوك، كانوا يجدون نخوة في أن يتوفروا على مخطوطات قيمة. فلم يكونوا يتراجعون أمام أي ثمن للحصول على مؤلف كانوا يرونه جديرا بمكتباتهم الخاصة. ولعل

بقاء عدد من عيون الآثار يعزى إلى هاته العقلية العلمية، وهذا الحب والولع بالكتب.

إن انفتاح هاته المكتبات أمام الجمهور، واليسر في تبادل مخطوطاتها، والإعارة المسموح بها سواء للقراء، أو لخزانات الكتب الأخرى (بين الخزانات) كل هذا يجعلنا نذهب إلى أن المكتبات قد أسهمت بشكل واسع في تطوير المعرفة في المغرب".³¹

واخيرا فإن أمل الانقاذ رهين باستراتيجية فاعلة ينبغي أن تنطلق من الأمور الآتية :

_ فهرسة الخزانات الخاصة والعامة - التي لم تفهرس- في كل ربوع المغرب بالتنسيق بين مراكز البحث والتابعة للجامعات والهيئات الرسمية التابعة للدولة.

_ توجيه البحوث الجامعية للقيام بأبحاث ودراسات أكاديمية تستهدف إنقاذ التراث بوجه عام وإحصاء المخطوطات والتعريف بمحتوياتها والكشف عن دقائقها.

_ العمل على صيانة المخطوطات وتوفير شروط السلامة الضرورية لحفظها وحمايتها.

-التواصل بين جامعات العالم العربي والإسلامي في مجال التعريف بالتراث وتحقيقه تفاديا لتكرار الجهود في الدراسات والتحقيقات .

- ضرورة الاعتناء بالكتب والمخطوطات والوثائق والظواهر والرسائل باعتبارها تركة ثمينة يجب على الورثة صيانتها وحمايتها

باعتبارها عنوانا لتألق الحضارة العربية والإسلامية وأهم مظهر من
مظاهرها تفوقها العلمي والثقافي متحديا بذلة كافة التحديات وتجاوز
كل الصعوبات ، فعلى الخلف اقتفاء اثر السلف في ذلك ، والسير
على دربه فكل من سار على الدرب وصل.
والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

الهوامش:

- 1 أحمد شوقي بنبين، مجلة دعوة الحق، المخطوطات بالمغرب مخطوطات الخزانة الحسنية_ نموذجاً _ العدد 364 ذو الحجة 1422/فبراير 2002
- 2 شوقي بنبين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ترجمة د. مصطفى طوبي، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، نشرته الخزانة الحسنية، ط1 سنة 1424هـ/ 2003، ص:175
- 3 العلامة محمد بن ابراهيم الكتاني: قصة تأسيس الحركة الوطنية والحركة السلفية بالمغرب ونبذة عن تاريخ علم المكتبات والمخطوطات، جمع وتحقيق د علي بن المنتصر الكتاني، أوميغا للتواصل والنشر والتوزيع، 2007، ص:253
- 4 مدرسة علمية عتيقة توجد على بعد 30 كلم من مدينة تارودانت، قمت بزيارتها يوم الأربعاء 9 أكتوبر 2013.
- افادني بذلك المشرف على هذه المدرسة5
- 6 المختار السوسي، خلال جزولة، مطبعة النجاح الجديدة 9/3
- 7 الكتاني ، د.علي بن المنتصر:العلامة محمد بن ابراهيم الكتاني :قصة تأسيس الحركة الوطنية والحركة السلفية بالمغرب ونبذة عن تاريخ علم المكتبات والمخطوطات ، أوميغا للتواصل والنشر والتوزيع، 2007، ص:252
- 8 شوقي بنبين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ص:176.
- 9 المصدر نفسه.
- 10 الكتاني، عبد الحي، تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب ،المطبعة والوراقة الوطنية الحي المحمدي مراكش ،الطبعة الأولى 2004 ، ص:88
- 11 المراكشي، عبد الواحد : المعجب في تلخيص اخبار المغرب شرحه واعتنى به د. صلاح الدين الهواري الناشر: المكتبة العصرية الطبعة :الأولى سنة 1426 هـ - 2006 مص 197
- 12 المصدر نفسه.
- 13 محمد المختار السوسي: المعسول، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء 1961، 3، ص:328.
- 14 عبد الحي الكتاني، تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب ،المطبعة والوراقة الوطنية الحي المحمدي مراكش ،الطبعة الأولى 2004 ، ص:82 83.

-
- 15 الناصري، المزايا نقلا عن د.شوقي بنين تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ، ترجمة د. مصطفى طوي، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، نشرته الخزنة الحسنية، ط 1 سنة 1424هـ/2003. ص:139
- 16 احد علماء المغرب صاحب النبوغ في الادب المغربي، اصله من فاس كان مقيما بطنجة وبها توفي وترك مكتبة علمية تضم مخطوطات قامت وزارة الاوقاف المغربية بنشر فهرسها.
- 17 عبد الصمد العشاب، فهرس مخطوطات مكتبة عبد الله كنون، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب 1417 هج 1996 ص:7.
- 18 أحمد شوقي بنين، المخطوطات بالمغرب مخطوطات الخزنة الحسنية_ نموذجًا_ مجلة دعوة الحق، العدد 364 ذو الحجة 1422/فبراير 2002
- 19 المصدر نفسه
- 20 المصدر نفسه.
- 21 محمد بن عبد الهادي المنوني، الخزنة الحسنية دور الكتب في ماضي المغرب، تقديم أحمد شوقي بنين، الطبعة الأولى 2005.ص:27
- 22 محمد المنوني، دور الكتب في ماضي المغرب، تقديم شوقي بنين ص:41.
- 23 إحياء الطالب، مقال: الوقف المكتبي وأثره في الحياة العلمية بالمغرب، مجلة قطر الندى، ص:159، عدد1، السنة الأولى رمضان 1429هـ.
- 24 محمد المنوني، دور الكتب في ماضي المغرب، تقديم شوقي بنين ص:415
- 25 المصدر نفسه
- 26 محمد المنوني، دور الكتب في ماضي المغرب، تقديم شوقي بنين ص:415
- 27 مجلة قطر الندى، المقال المذكور.
- 28 شوقي بنين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ترجمة د. مصطفى طوي، ص203
- 29 عبد الحي الكتاني ، تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب ، المطبعة والوراقة الوطنية الحي المحمدي مراكش ، الطبعة الأولى 2004 ، ص:56.
- 30 بنين شوقي مجلة دعوة الحق المقال المذكور
- 31 احمد شوقي بنين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ترجمة الدكتور مصطفى الطوي. مع (تصرف يسير) الطبعة الاولى 1424/2003 ص:146